السّياق وجهازه المصطلحيّ: قراءة في مُتَصَوَّرِ السّياق عند النّقّاد العرب

Context and Its Terminological Apparatus: A Reading of the Concept of Context in Arab Criticism

أستاذ مساعد/ البرقاوي بسّام

قسم اللغة والآداب العربية -جامعة الشرقية-إبراء (سلطنة عمان)

الأستاذ إبراهيم الشبيبي

قسم اللغة والآداب العربية -جامعة الشرقية-إبراء (سلطنة عمان)

تاريخ الإرسال: 2025/06/09	تاريخ القبول: 2025/07/08	تاريخ النشر: 2025/12/30

Abstract:

Although classical Arab scholars did not formulate a theory of context in the same way it was later conceptualized in modern critical discourse—particularly with the emergence of a self-standing contextual theory in the work of English linguist J. R. Firth—the absence of a fully articulated contextual theory in its modern sense does not mean that early Arab thinkers were unconcerned with context. A close examination of various branches of Arab intellectual discourse—such as the sciences of ḥadīth, linguistics, rhetoric, and literary criticism—reveals that the notion of context (siyāq) was a fundamental concern that helped shape these fields into fully developed disciplines within the Arab-Islamic intellectual tradition.

What matters most for the purpose of this study is the discourse of literary criticism, which is rich with references to context and clearly demonstrates that this concept played a key role in shaping critical discourse—both in terms of determining critical judgments and in organizing the associated terminological framework. This suggests that context is deeply rooted in Arab critical heritage. Despite the varying ways Arab critics approached this concept, they shared an underlying concern with all the elements that define context as a critical category. Otherwise, how could we explain their detailed interest in the communicative process and the conveyance of meaning? And how can we account for the evaluative criteria and critical judgments they developed—criteria that preoccupied both classical and modern critics?

Moreover, their concern with context led to the development of a terminological apparatus that reveals their capacity to establish a critical discourse grounded in systematic and scientific inquiry. On this basis, the axes of this research are defined as follows: first, we will explore the concept of context from

the perspective of contemporary Western theory; within this framework, we will then examine how Arab rhetoricians and classical critics conceptualized context; finally, we will conclude by outlining the key terminological components that formed around this notion**.**

key words: Context; situational context,; Situational Appropriateness; Coherence; Reference;

مُلخّص البحث

مع أنّ العرب القدامى لم يصوغوا نظريّة في السّياق مثلما هو الحال في الخطاب النّقدي الحديث الّذي أصبح معه هذا المفهوم نظريّة قائمة الذّات مع الباحث الأنجليزيّ جون روبرت فيرث J. R. Firth، فإنّ غياب عناصر النّظريّة السّياقيّة بمفهومها الحديث عند العرب القدامى لا يعني أنّهم لم يهتمّوا بالسّياق. فالمتعقّب لمختلف الخطابات المعرفيّة العربيّة (أصول الحديث، اللّغة، البلاغة، النّقد الأدبيّ...) يدرك أنّ متصوّر السّياق كان من المشاغل الأساسيّة الّتي تمّ بها ضبط مختلف الحقول المعرفيّة حتّى أصبحت علوما قائمة الذّات في تراثنا. وما يعنينا من هذه الخطابات هو خطاب النّقد الأدبيّ وما توفّر عليه من إشارات تحيل إلى السّياق وتبيّن في الآن ذاته أنّ هذا المتصوّر كان له دور مهمّ في ضبط الخطاب النّقديّ سواء في ما خصّ ضبط الأحكام النّقديّة أو كذلك في ضبط الجهاز المصطلحيّ. وهذا ما يفيد بأنّ السّياق متأصّل في التّراث النّقديّ. وعلى اختلاف تعامل النّقاد العرب مع هذا المفهوم، فإنّهم اهتمّوا بكلّ ما يجعل من السّياق مقولة نقديّة وإلاّ بِمَ نُفسّر اهتمامهم بكلّ ما خصّ عمليّة التّواصل وتبليغ المعنى؟ وبِمَ نُفسّر أيضا، استنباطهم تلك الأحكام النّقديّة وما استتبعها من قضايا شغلت أغلب المهتمّين بالنّقد سواء عند القدامى أو المحدثين؟ يُضاف إلى ذلك أنّ اهتمامهم بالسّياق أفضى إلى ضبط جهاز مُصطلحيّ كشف مدى اقتدارهم على تأسيس خطاب نقديّ يأخذ بأسباب البحث العلميّ المنهجيّ. وعلى هذا الأساس تتحدّد محاور هذا البحث بتحديد مفهوم السّياق من المنظور الغربيّ المعاصر وفي إطار هذا المنظور نُنزل مُتصوّر السّياق عند البلاغيّين والنّقّاد العرب القدامى، ثم نختم بالوقوف على أهمّ جهازه المصطلحيّ.

الكلمات المفتاحية: السّياق؛ المقام؛ مقتضى الحال؛ صحّة النّسق ؛ الإشارة.

المقدّمة:

إنّ ضبط الحقول المعرفيّة مهما كان مجالها لا بدّ أن يتمّ بضبط جهازها المفاهيميّ، لأنّ ما من نظريّة نقديّة إلاّ وتشكّلت من مادّة مُصطلحيّة تمثّل المفتاح الرّئيس لفهم الأسس الّتي تقوم عليها. والحقّ أنّ المدخل المصطلحيّ لمختلف العلوم بات من أولويّات البحث العلميّ الّذي يروم الدّقة المنهجيّة وما تفضي إليه من نتائج علميّة يُطمأنّ إليها. وفي هذا الإطار يندرج هذا المقال الّذي سنحاول أن نتعقّب فيه مسألة السّياق عند العرب القدامى من زاوية مُصطلحيّة تنظر في حضور متصوّر السّياق عندهم، ثم تُحاول إبراز علاقة هذا المتصوّر بأهمّ المصطلحات الّتي تندرج معه في نفس المدلول. ولئن ارتبط السّياق عند القدامى والمعاصرين بقضيّة القراءة وتأويل الخطاب وما أفضت إليه عند المعاصرين من تأسيس نظريّة خاصّة بالسّياق فتحت أبواب جديدة في دراسة الدّلالة اللّغويّة للمعنى، فإنّ علاقة السّياق بقضايا القراءة والتّأويل ليست من مشاغلنا الأساسيّة في هذه القراءة التّعقّبيّة، وإنّما الّذي يهمّنا بالأساس هو المقاربة المصطلحيّة لهذه المسألة. [1] فـما السّياق؟ وفِيمَ تتمثّل أهمّ مُكوّنات جهازه المصطلحيّ في التّفكير البلاغيّ والنّقديّ العربيّ القديم؟

I/ في تحديد مفهوم السّياق:

1/مفهوم السّياق من المنظور الغربيّ المعاصر:

لئن بات من المسلّم به اعتبار السّياق من أهمّ نظريّات علم الدّلالة في الدّرس اللّغويّ الحديث، فإنّ ضبط هذا المفهوم يبقى مشكلا نظرا إلى طبيعة المادّة المُتصوّريّة الّتي يتشكّل منها. وهذا ما يدعونا إلى محاولة الرّجوع بالمفهوم إلى أصوله اللّغويّة والاشتقاقيّة في أهمّ المصنّفات الغربيّة حتّى نتبيّن أهمّ معانيه وندرك أهمّ مستويات إجرائه خاصّة وأنّه يعدّ نظريّة في ذاته. ولمّا كانت غايتنا دراسة هذا المفهوم في التّراث النّقديّ العربي وإبراز مدى حضوره في خطاب النّقّاد العرب القدامى كان لا بدّ من الرّجوع أيضا إلى أهمّ المصنّفات العربيّة وذلك للوقوف على أهمّ معانيه وتبيّن طبيعة المادّة المتصوّريّة الّتي تشدّه خاصّة وأنّ التّراث العربيّ يتوفّر على ما يفيد بحضور هذا المفهوم وإن بمفاهيم تحمل تسميات غير تسمية السّياق.

يُستحضر السّياق Contexte في الدّرس اللّغويّ الحديث بمفهوم الدّراسة اللّغويّة للمعنى. وأمّا عن أصوله، فهو يعود إلى اللّغة اللاّتينيّة ومعناه النّصّ أو مجموع النّصّ الّذي يسبق أو يتبع جملة أو كلمة أو مجموعة من كلمات [2] وجاء في معجم Le Robert بالمعنى ذاته [3] ويُعرَّفُ في معجم اللّسانيّات لجون ديبوا Jean Dubois بالمحيط L'environnement ويُقصد به الوحدات الّتي تسبق أو تلي وحدة معيّنة ويُسمّى بالسّياق أو السّياق الشّفويّ، وله مفهوم آخر يرتبط بالملابسات الاجتماعيّة الّتي تتنزّل في إطار دراسة العلاقات القائمة بين السّلوك الاجتماعي والسّلوك اللّساني. ولعلّ اللاّفت في هذا التّعريف، أيضا، هو أنّ السّياق يرتبط بالمقام

Situation والمتمثّل في المعطيات المشتركة بين المتكلّم والسّامع في مقام ثقافيّ ونفسي مُحدّد [4]. وأمّا معجم اللّسانيّات وعلوم اللّغة، فيُحدّد السّياق بالعناصر الّتي تسبق أو تلي وحدة معينة ومحيطها الّذي يتحدّد بالسّياق الاجتماعيّ لاستعمال اللّغة [5] والمحيط مفهوم أساسيّ في تعريف مصطلح السّياق كما جاء في قاموس تحليل الخطاب الّذي يذهب إلى أنّ سياق عنصر ما يتحدّد بما يحيط بذلك العنصر سواء أكان لغويّا أم غير لغويّ[6]. ويُميّز جورج مونان Georges Mounin في معجم اللّسانيّات السّياق اللّغويّ من سياق الحال الّذي يتنزّل فيه الخطاب[7]. وجاء في قاموس السّيميائيّات لغريماس J. Grimas وكورتيس J. Courtes أنّ السّياق هو مجموع النّصوص الّتي تسبق أو تلي وحدة تركيبيّة معيّنة وتختصّ بها الدّلالة، وقد يكون السّياق صريحا أو ضمنيّا وفي هذه الحالة يكون السّياق خارج لساني أو مقامي[8].

ومع تشعّب علم الدّلالة وما صاحبه من اهتمام واسع باللّغة وبقوانين اشتغالها تعقّد مفهوم السّياق وتعدّدت مدلولاته من حيث علاقته بالفعل الكلامي والعلاقات القائمة بين الدّوالّ وكلّ ما يساهم في إنتاج الخطاب. ولعلّ التّداوليّة كانت من بين أهمّ الاتجّاهات الّتي وظّفت هذا المفهوم وفق ما يُصطلح عليه بالرّموز والإشارات ونظريّة الأفعال بالكلام، فكان أن ارتبط السّياق بجميع الملابسات الحافّة بالخطاب سواء من داخل النّصّ أو من خارجه. فحضر السّياق بوصفه أداة اشتغال الخطاب التّداولي وما يفضي إليه من غايات نفعيّة[9]. يُضاف إلى ذلك ما خصّ شروط إنجاز الخطاب وما ترتّب عليه من شروط سياقيّة أثناء استعمال اللّغة كما هو الشّأن مع أوستين Austin الّذي اهتمّ بالفعل اللّغويّ المُنجز في بحثه المشهور (عندما نقول فإنّنا نفعل) Quand dire, c'est faire[10].

تفيد المادّة اللّغويّة بأنّ مفهوم السّياق يُستحضر وفق مستويين اثنين هما: المستوى اللّغويّ الّذي يرتبط بالنّصّ وما يستتبعه من مكوّنات لفظيّة وتركيبيّة ودلاليّة ومستوى غير لغويّ يهتمّ بالظّروف الحافّة بإنجاز الخطاب وكلّ ما يتعلّق بخارج النّصّ. وهذا ما يجعل من مفهوم السّياق مفهوما مُتحوّلا أبدا نظرا إلى تعدّد مستويات إجرائه سواء أتعلّق الأمر بالمستوى اللّغويّ أم بالمستوى غير اللّغوي ويكشف الدّرس اللّغويّ الحديث الخاصّيّة المفهوميّة والإجرائيّة لهذا المصطلح الّذي بات يشكّل نظريّة من أهمّ نظريّات علم الدّلالة في الدرّس اللّغويّ الحديث. هذا ما يصلنا بالنّظر في متصوّر السّياق عند العرب القدامى.

2/ مفهوم السّياق عند العرب القدامى:

اهتمّ المصنّفون العرب القدامى بضبط جهازهم اللّغويّ وحرصوا على تحصينه من كلّ ما يمكن أن يهدّد سلامة اللّغة العربيّة، والمصنّفات في هذا الباب عديدة نكتفي بالإشارة إلى ابن فارس في مقاييس اللّغة والزّمخشري في أساس البلاغة والجرجاني في دلائل الإعجاز وابن منظور

في لسان العرب... وقد كانت الحاجة ملحّة عندهم إلى وضع معاجم في شتّى علوم العربيّة لتحصينها من الدّخيل المفتعل، والنّاظر في مقدمة اللّسان يدرك قيمته العلميّة والمعرفيّة في زمن بات فيه العرب بغير لغتهم يتفقّهون. ولئن كانت قيمة هذه المصنّفات حاصلة بداهة، فإنّ الّذي يعنينا في هذا الإطار هو النّظر في مدى اهتمام العرب القدامى بالسّياق، والحال أنّ مصنّفاتهم في شتّى العلوم بارزة وذات قيمة علميّة ومعرفيّة. وليس يعنينا السّياق في مفهومه العام الّذي هو من أهمّ نظريّات علم الدّلالة في الدّرس الحديث، وإنّما الّذي يهمّنا بالذّات هو مدى حضور السّياق في الخطاب النّقديّ القديم، وبالتّحديد في النّقد الأدبيّ. ويقتضي استقصاؤنا مسألة السّياق النّظر في مفهومه عند العرب القدامى وسياقات إجرائه في ما أمكن من مصنّفات معجميّة وحقول معرفيّة. ولمّا كان خطاب النّقد الأدبيّ القديم يقوم في بدايات تشكّله على خطاب مجازيّ استعاريّ كان لا بدّ من محاولة استقصاء مدى حضور السّياق في ذلك الخطاب. فما السّياق عند العرب القدامى؟ وما مُتصوّره؟ وهل اسْتُحْضِرَ بوصفه مُصطلحا تامّ الاصطلاحيّة؟ وهل من الممكن الحديث عن توفّر مكوّنات نظريّة سياقيّة عند العرب القدامى؟

إنّ دراسة مفهوم السّياق عند العرب القدامى لا يتسنّى إلاّ بالرّجوع إلى المصنّفات الأصول في هذا الباب والوقوف على متصوّر هذا المفهوم والنّظر في مادّته اللّغويّة. فقد جاء في مادّة (س وق) «السّوق معروف: ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسوّاق [...] وقد انساقت وتساوقت الإبل إذا تتابعت وكذلك تقاودت فهي متقاودة ومتساوقة. وفي حديث أمّ معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تساوق أي ما تتابع. والمساوقة: المتابعة كأنّ بعضها يسوق بعضا[...] وساق إليها الصّداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير لأنّ أصل الصّداق عند العرب الإبل وهي الّتي تساق[...] والسّياق: المهر.[11]

إنّنا عندما ننظر في هذه المادّة اللّغويّة ندرك أنّ المُصنّف يستمدّ تعريفها من المحيط الخارجيّ وما يتوفّر عليه من مكوّنات، وهذه المكوّنات هي صورة الإبل وقد انساقت وما يستتبعها من أفعال تجري في ذات المعنى: تتابعت، تقاودت، يُضاف إلى ذلك ما ارتبط بمتصوّر التّرتيب والنّظام. ونقف عند ابن فارس على تعريف لا يخرج على ما جاء في اللّسان:« السّين والواو والقاف أصل واحد وهو حدو الشّيء يقال ساقه يسوقه سوقا والسّيقة: ما استيق من الدّواب ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها وأسقته والسّوق مشتقّة من هذا لما يُساق إليها من كلّ شيء والجمع أسواق، والسّاق للإنسان وغيره والجمع سوق وإنّما سُمّيت بذلك لأنّ الماشي ينساق عليها» [12]. ولئن لم يخرج التّعريف على ما جاء في اللّسان، فإنّ اللاّفت في تعريف هذه المادّة هو ما يُفيد بالانسياق والاتّباع والتّقاود وحدو الشّيء. فالمادّة الاشتقاقيّة في هذا الإطار تُفيد بمفهوم

علاقة قائمة على متصوّر التّعالق والتّرابط من زاوية التّتابع، بمعنى أن يلي شيء ما شيئا آخر على ترتيب مخصوص. وهذا ما يصلنا بترتيب الحديث عند الزّمخشري وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده[13]. فهذا التّعريف يرتبط بعمليّة التّواصل وبمدى تحصيل الفائدة منها في قوله:« يسوق الحديث أحسن سياق». وسوق الحديث يفيد بمبدإ ترتيب تكرار مضبوط. وهذا ما نجد له تعريفا مخصوصا عند ابن منظور جاء فيه:« ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض ليس بينهم جارية، وَوُلِدَ لفلان ثلاثة أولاد ساقا على ساق أي واحد في إثر واحد، وبنى القوم بيوتهم على ساق واحدة» [14]. ووفق هذا التّعريف يتشكّل متصوّر السّياق بما هو المجاراة والانسياق والانقياد والتّتابع، والنّظام.

تفيد دراسة المادّة الاشتقاقيّة لهذا المفهوم بأنّ السّياق يستمدّ متصوّره من المعنى المجازي الّذي يؤثّر في معناه اللّغوي ليتشكل المتصوّر الجامع بما هو التّتابع والمجاراة ومجيء الشّيء على ترتيب مخصوص. ليكون المعنى المجازي المرتبط بصورة الإبل والدّواب وقد انساقت هو المتصوّر المجازي الّذي يُشاكل سياق الحديث. ومن هنا يؤثّر المعنى المجازيّ في المعنى اللّغويّ فيتشكّل متصوّر السّياق على أساس الانقياد والتّتابع والتّسلسل والتّرتيب والنّظام. وعلى هذا الأساس يتشكّل متصوّر السّياق عند العرب القدامى. وهذا ما يصلنا بالنّظر في أهمّ الجهاز المصطلحيّ الخاصّ بالسّياق في دراساتهم.

II/ متصوّر السّياق في التّفكير البلاغيّ والنّقديّ العربيّ القديم:

نشير في البداية إلى أنّ توزيع دراستنا في مسألة السّياق على ما خصّ الخطاب البلاغيّ وخطاب النّقد الأدبيّ هو توزيع منهجيّ بالأساس، لأنّ الخطابين في الأصل لا ينفصلان وإنّما يتكاملان في إبراز هذه المسألة عند العرب القدامى. فَفِيمَ يتمثّل أهمّ الجهاز المصطلحيّ المتعلّق بالسّياق في التّفكير البلاغيّ عند العرب القدامى؟

1/متصوّر السّياق وجهازه المصطلحيّ في التّفكير البلاغي القديم:

يكشف مستوى الدّراسة المفهوميّة للسّياق أنّ هذا المفهوم لقي اهتماما بالغا عند الباحثين في العصر الحديث. وهو ما جعل منه نظريّة قائمة الذّات، بينما كان حضوره متصوّريّا عند الباحثين العرب القدامى. وأمّا في مستوى علاقته بالنّصّ، فإنّ السّياق هو المحدّد الجوهريّ لبنية النّصّ مهما كان مجاله المعرفيّ. فالنّصّ يتحدّد بما يتوفّر عليه من مقوّمات أهمّها الاتّساق Cohésionوالانسجام Cohérence بين العناصر المكوّنة لبنيته. وهذا ما يجعل السّياق هو الأساس الّذي في ضوئه يتمّ الحكم على النّصّ من ناحية مدى توفّر مكوّناته الأساسيّة التي تجعل منه نصّا. ومع أنّ بنية النّص تتحدّد بتوفّر شروط مكوّناته الأساسيّة، فإنّ السّياق ظلّ

محلّ سجال بين الباحثين، بما أنّنا لا نقف على تعريف دقيق لهذا المفهوم. وهذا ما يفضي بنا إلى النّظر في الجهاز المفاهيميّ لمصطلح السّياق عند البلاغيّين العرب القدامى.

تكشف المصنّفات العربيّة القديمة أنّ مفهوم السّياق وإن لم يكن حاضرا بالتّسميّة المتعارف عليها في الدّرس الحديث (السّياق)، فإنّ متصوّره لم يكن غائبا بل كان يُستحضر بمفاهيم قريبة منه تشترك معه في مستوى المدلول مثل مصطلح المقام. ولئن كان المقام يُعدّ من أبرز المصطلحات المتواترة في استعمال القدامى، فإنّ هذا لا يمنع من توفّر مصطلحات أخرى من مثل الحال ومقتضى الحال والنّظم والتّأليف والتّركيب... وتمثّل هذه المفاهيم المادّة المصطلحيّة الّتي استعملها القدامى في إطار عنايتهم بالنّصّ وشروط إنجازه. فما المقام؟ وما علاقته بالسّياق؟

المقام: يتقاطع المقام مع مصطلح السّياق ويأخذ مستويين اثنين: المستوى الأوّل يتداخل فيه مع مصطلح السّياق وأمّا المستوى الثّاني، فيخصّ مستويات إجرائه، من ذلك أننا نقف في قاموس تحليل الخطاب لشارودو P. Charaudeau ومانقنو D. Maingueneau على مستويات إجرائيّة عديدة هي: مقام التّبليغ Situation de communication ومقام الخطاب Situation de discours والمقام السّياقي Situation contextuelle والسّياق المقامي، الاجتماعي، الثّقافي Situation situationnel, Social, Culturel [15]. وكلّ هذه المستويات تخصّ مفهوم المقام والسّياق. ومن هنا، يبدو أنّ المقام يتداخل مع السّياق في مستوى التّسمية والإجراء، وأنّ الملابسات المقاميّة هي الّتي تحدّد المعنى من الكلام المتلفّظ به، وفي غياب تلك الملابسات يمكن أن يُساء فهم المعنى المقصود. وعلى هذا الأساس فإنّ الفعل اللّغويّ مشروط بمقام التّلفّظ. ولئن ارتبط المقام بشروط إنجاز الخطاب، وهو ما يعني أنّ الخطاب مُحدّد بملابسات معيّنة- وهو ما تفيد به نظريّة الأفعال اللّغويّة مع أوستين **Austin** وما تولّد عنها من معايير مقاميّة ومقاليّة [16] ، فإنّ السّياق يخرج إلى حدّ ما عن تلك الملابسات المخصوصة الّتي تقيّد المقام ليكون السّياق في معناه الدّقيق أعمّ من المقام وأكثر شموليّة منه.

مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إنّ الاهتمام بالمقام ومراعاة الظّروف الحافّة بالخطاب كانت من بين مشاغل العلماء والنّقّاد العرب القدامى. وقد تجلّى هذا الاهتمام في ما توفّر في مدوّناتهم من شروط تخصّ إنجاز الخطاب وما يستتبعه من مقوّمات تتطلّب مراعاة المقامات نظرا إلى أهمّيتها البالغة في عمليّة التّواصل وتحقيق الغرض المقصود منها. وفي هذا الإطار يتنزّل تعريف القدامى للمقام، من ذلك ما ذهب إليه السّكاكي من أنّ: مقام الكلام ابتداء يباين مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السّؤال يغاير مقام البناء على الإنكار. وهذا ما يفيد بأنّ عمليّة

التّواصل تقتضي وعيا بشروط صياغة الكلام المتلفّظ به، ومشروطة في الآن ذاته بمقتضى الحال:« ثمّ إذا شرعت في الكلام فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام ولكلّ حدّ ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به هو الّذي نسمّيه مقتضى الحال». فمقام الكلام في هذا المستوى مشروط بمدى مصادقته لمقتضى الحال. وهو شرط أساسيّ من شروط القبول به من عدمه. كما يقتضي الكلام في هذا الإطار أن يحدّد صاحب الخطاب صياغة في الكلام تكون بليغة ومؤدّية للغرض وحافظة لمكانة المخاطب. فصاحب الخطاب مطالب بأن: يتخيّر اللّفظ فلا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السّوقة ويكون في قواه التّصرّف في كلّ طبقة[17] ، وأن يسعى إلى: إفهام كلّ قوم بقدر طاقتهم والحمل عليهم على قدر منازلهم[18] وأن لا يخالف هذه القاعدة متى أراد أن يحقّق الغرض المقصود من كلامه [19] ، ليكون المقام في هذا الإطار محدّدا أساسيّا من محدّدات إنجاز الخطاب على الوجه المطلوب فيتحقّق ما يُصطلح عليه بمطابقة الكلام لمقتضى الحال. فكيف تتحدّد وجوه بلاغة الكلام؟

يتحدّد الكلام في تعريف العرب القدامى بمناسبته لما يليق به أي بمقتضى الحال، لأنّ وجوه تصريف الكلام عديدة والمقامات متفاوتة ومقتضى الحال مختلف. فبلاغة الكلام هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف ومقامات الكلام متفاوتة[20]. كما يتحدّد مقتضى الحال بأن يكون الكلام مطابقا للحالة الّتي يتحدّث عنها ومناسبا للموقف الّذي يتحدّث فيه، فخير الكلام ما كان مطابقا لمقتضى الحال[21]. وقد أكّد الجاحظ في مواطن من كتاباته ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال:« ومن علم حقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقًا وتلك الحال له وقفا [...] ومدار الأمر على إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم والحمل عليهم على أقدار منازلهم» [22]، مع مراعاة طبيعة الكلام وما يقتضيه من جهاز لغويّ يتماشى مع طبيعة ذلك المقام. وبهذا التّصور تكون مطابقة الكلام لمقتضى الحال كما جاء في القول المأثور:« لكلّ مقام مقال ولكلّ صناعة شكل » [23]وهي مقولة مأثورة تداولها الدّرس النّقدي والبلاغيّ العربيّ القديم في إطار عنايته بشروط البلاغة في الكلام ومدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال[24] وبهذا الفهم، فإنّ الوعي بشروط إنجاز الخطاب هو الّذي يحدّد بلاغة الكلام من عدمه.

من هنا نتبيّن تشكّل متصوّر السّياق عند القدامى، ويتمثل في الحديث عن مواطن البلاغة في الكلام وما يتوفّر عليه من تكرار مواضع تحسن فيها الإطالة وأخرى تقتضي الإيجاز. فما يفيد بتشكّل متصوّر السّياق هو مراعاة المقام وما يصاحب الحدث الكلامي من ملابسات تستدعى استقراء حاجة المتلقّي من ذلك الكلام، ليُعدّ المتلقّي عنصرا أساسيّا من عناصر إنجاز الخطاب على الوجه المطلوب. ووفق هذا التّصوّر تتحدّد بلاغة الكلام.

المقال: ويُعْرف أيضا بالسّياق المقالي، ويتنزّل في إطار ما يُسمى بالسّياق اللّغوي، من ذلك ربط فصاحة الكلام ببنيته التّركيبيّة واللّغويّة، كما هو الشّأن مع عبد القاهر الجرجاني في مسألة النّظم[25]. لتتحدّد فصاحة الكلام بموضعها من النّظم سواء تركيبيّا أو معنويّا. ولهذا نجد النّقّاد والبلاغيّين العرب القدامى يستعملون أيضا التّأليف والتّركيب والاستعمال في باب تأكيد فصاحة الكلام من جهة بنيته اللّغويّة والتّركيبيّة.

صحّة النّسق: يختصّ هذا المصطلح بنظم الكلام وبطرق الانتقال من معنى إلى آخر. وجاء في معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها بهذا المعنى:«قال بن سنان عن صحّة النّسق والنّظم:«هو أن يستمرّ في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التّخلّص إليه حتّى يكون متعلّقا بالأوّل وغير منقطع عنه[26].

ويدخل في باب مُتصوّر السّياق جهاز مصطلحيّ آخر يندرج ضمن الشّبكة المصطلحيّة الّتي يتشكّل منها هذا المتصوّر من ذلك الإشارة والنّصبة والبساط والنّسق والسّبب والسّباق وهي مصطلحات تمّ تداولها في إطار ما يُعرف في الدّرس اللّغويّ الحديث بالظّروف الحافّة بإنجاز الخطاب وما يستتبعه من دلالات. كما يتنزّل في هذا الإطار أيضا، ما ذهب إليه الجاحظ من أنّ أصناف الدّلالات عن المعاني وهي خمسة:« أوّلها اللّفظ، ثمّ الإشارة ثمّ العقد ثمّ الخطّ ثمّ الحال الّتي تسمّى نصبه». ومن هذه الأصناف يتجلّى صنفان لهما علاقة بمتصوّر السّياق:

الإشارة: تتنزّل الإشارة في إطار ما يُعرف بسياق الموقف، ومن الأمثلة المتواترة في هذا المعنى:« ربّ إشارة خير من عبارة». وتقوم الإشارة في بعض المواطن بديلا من اللّفظ، بل وتُعدّ أبلغ منه لأنّها تؤدّي المعنى المقصود في ذلك الموقف:«وحسن الإشارة باليد والرّأس من تمام حسن البيان باللّسان»[27]. ولذلك عدّها الجاحظ من أصناف الدّلالات على المعاني.[28]

النّصبة: تتنزّل النّصبة في إطار ما يُعرف بسياق الحال، أو ما يمكن أن يقوم مقام الكلمات من أشياء. وجاء في تعريفها أنّها الحال النّاطقة بغير اللّفظ والمشيرة بغير اليد وذلك ظاهر في خلق السّماوات والأرض في كلّ صامت وناطق. فالصّامت ناطق من جهة الدّلالة لذا قال الفضل بن عيسى بن أيان: سل الأرض فقل من شقّ أنهارك، وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا.[29]

إنّ فهم السّياق عند العرب القدامى يتحدّد بالجهاز المصطلحيّ الّذي تواتر فيما صنّفوا من مؤلّفات في هذا الباب. وقد تبيّن لنا أنّ هذا المفهوم كان حاضرا في متصوّر البلاغيّين وتجلّى ذلك في جهاز مفاهيميّ واضح مثل المقام والمقال ومطابقة الكلام لمقتضى الحال وهي مفاهيم أساسيّة تتحدّد بها بلاغة الكلام من عدمه:«إنّ مدار حسن الكلام وقبحه على انطباق تركيبه على مقتضى الحال وعلى انطباقه»[30]. كما ذهب القزويني إلى أنّ:«ارتفاع شأن الكلام في الحسن

والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له. فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب، وهذا يعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الّذي يسمّيه الشّيخ عبد القاهر بالنّظم»» [31]. وهذا ما يصلنا بالنّظر في متصوّر السّياق في إطار مسألة النّظم.

متصوّر السّياق والنّظم:

مصطلح النّظم من استعمالات النّقّاد والبلاغيّين العرب القدامى، ولعلّ من أبرزهم عبد القاهر الجرجاني الّذي وظّفه للدّلالة على السّياق:«ليس النّظم شيئا إلاّ توخّي معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم» [32] . وهو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض[33]. وبهذا التّصوّر الّذي جاء عليه مفهوم نظم الكلام يستمدّ مفهوم السّياق حضوره في التّفكير البلاغي عند العرب القدامى:«ومن النّظم ما يتّحد في الوضع ويدقّ فيه الصنع وذلك أن تتّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتدّ ارتباط ثان بأوّل، وأن يحتاج في الجملة إلى أن توضع في النّفس وضعا واحدا وأن يكون الحال فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع يساره هناك. ومنه ما لا يحتاج إلى فكر وروية لكي ينتظم بل سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى للآلٍ فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التّفرّق وكمن نضد أشياء بعضها إلى بعض لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له من هيئة أو صورة بل ليس إلاّ أن تكون مجموعة في رأي العين، وذلك إذا كان المعنى لا يحتاج أن يصنع فيه شيء غير عطف لفظ على مثله. ولا بدّ أن يتغيّر المعنى إذا تغيّر النّظم وفي ذلك مجال رحب يجول فيه المنشئون» [34]. والنّظم عند ابن رشيق:« التّأليف [...] ونظمت اللّؤلؤ أي جمعته في السّلك» [35]. والّذي يعنينا ممّا جاء في تعريف النّظم هو ما يقتضيه نظم الكلام من سياق يؤدّي المعنى على الوجه المطلوب. وهذا ما يجعل مصطلح النّظم في هذا الإطار يجري مجرى السّياق في صياغة الكلام مع مراعاة مقتضى الحال وما يستتبعه من فصاحة وبلاغة.

تكشف قراءتنا في متصوّر السّياق أنّه كان من المشاغل البارزة في التّفكير البلاغيّ العربيّ القديم. وهو ما تجلّى في ما وقفنا عليه من مادّة مصطلحيّة تتعلّق بمتصوّر السّياق. فما تمّ إنجازه في مسألة السّياق كفيل بالكشف عن مدى حضور هذا المتصوّر في التّفكير البلاغيّ القديم. يُضاف إلى ذلك ما أفضى إليه الاشتغال على المسألة من شروط صارمة تخصّ إنجاز الخطاب وبلاغة الكلام وما صاغوه من مصطلحات في هذا الباب كفيل بإبراز قيمة مشروعهم النّقدي البلاغيّ.

2/مُتصوّر السّياق وجهازه المصطلحيّ في النّقد الأدبيّ القديم:

بقدر ما كان السّياق حاضرا في التّفكير البلاغيّ العربيّ القديم كان حاضرا أيضا، في خطاب النّقد الأدبيّ. وسنحاول في هذا المستوى أن ننظر في أهمّ الجهاز المصطلحيّ الّذي يفيد

بمتصوّر السّياق في مجال النّقد الأدبيّ. غير أنّ ما يجب التّنبيه عليه في هذا الإطار هو أنّ ما سنقف عليه من مادّة مصطلحيّة ليست بالضّرورة مقتصرة على النّقد الأدبيّ وإنّما هي مادّة مصطلحيّة غالبا ما يتمّ إجراؤها في هذا المجال.

يمكن رصد متصوّر السّياق في الملامح الأولى لخطاب النّقد الأدبي الّذي صاحب نشأة الشّعر وما استتبع ذلك من قضايا لعلّ من أبرزها ما جاء من أحكام نقديّة وما تعلّق بما يُصطلح عليه بالتّفضيل بين الشّعراء وغيرها من القضايا الّتي تخصّ عمليّة إنتاج النّص وعلاقته بالذّوق العام. فقد كان للذّوق العام دور وظيفيّ في عمليّة إنتاج الشّعر وما تقتضيه من مراعاة لهذا الذّوق. ومن ههنا أثيرت بعض المسائل المتعلّقة بالسّياق، منها ما تعلّق بالبنية الدّاخليّة للقصيدة وما تتوفّر عليه من قاموس لغويّ وأبنية تركيبيّة وعلاقة الكلمات بعضها ببعض وما تفضي إليها من دلالات. وهو ما يندرج ضمن ما يُصطلح عليه بالسّياق اللّغويّ. هذا بالإضافة إلى ما تعلّق بخارج النّصّ من ضرورة مراعاة العرف الاجتماعيّ وكلّ ما تعلّق بالظّروف الحافّة بإنتاج النّصّ. وهو ما يعرف في مفهومه العام بالسّياق الخارجيّ وما يتوفّر عليه من سياق تاريخيّ واجتماعيّ وعرفيّ وجماليّ... وهي سياقات مرتبطة بالذّوق العام الّذي يقوم مقام المقام وما يتطلّبه من مراعاة لمقتضى الحال كما سبق أن بيّنّا. ومن أبرز الأمثلة المتواترة عند النّقّاد العرب القدامى، ما جاء في حكم النّابغة على ما قال حسّان في بعض من شعره وهو حكم يتعلّق بخروج الشّاعر عن المألوف في الكتابة في غرض من الأغراض الشّعريّة[36] وهو ما يُفسّر وجها من وجوه النّقد آنئذ أهمّها أنّ النصّ الأدبيّ كان مقيّدا بقوانين صارمة مصدرها سلطة نقديّة تراقب الشّعر وتصوّب الإنتاج الأدبي كلّما حاد فيه صاحبه عن المتداول في هذا الباب. ومن ذلك أيضا ما جاء في غرض المدح الّذي يجب أن يراعي فيه الشّاعر المقام وما يناسبه من حال شأن زهير بن أبي سلمى الّذي كان:« لا يعاظل في الكلام وكان يتجنّب وحشي الشّعر ولم يمدح أحدا إلاّ بما فيه» [37] وما يعنينا في هذا الإطار هو أنّ المدح يتحدّد بالسّياق، فكان لابدّ أن يكون لكلّ مقام مقال في المدح[38]. وهذا ما يفيد بأنّ الحكم النّقديّ كان يُستمدّ من بعض الأغراض الشعريّة الّتي يكتب فيها الشّعراء، وغالبا ما يتحدّد المدح بجملة من الصّفات، يجب أن تتوفّر للممدوح مثل الكرم والشّجاعة والعفّة... لأنّ هذه الصّفات تتماشى مع السّنن الشّعريّة المعروفة عند العرب، وهي سنن تجري في الغالب على منظومة ثقافيّة من بضع صفات يصبّها الشّاعر في قالب بلاغيّ محكم، فكان أن جرى اختراع فنّ المديح ليكون أهمّ الأسباب الشّعريّة، وصار الشّعر لا يغوص في الخيال إلاّ عبر أسباب الرّغبة والرّهبة وهما تصنعان النّسق الثّقافيّ المحرّك للخطاب والمتحكّم بالذّات الثّقافيّة[39]. ليكون هذا النّسق الثّقافيّ هو المتحكّم الفعليّ بقوانين الكتابة في ما جاء من أغراض شعريّة يراعي فيها أصحابها العرف الاجتماعيّ السّائد. ومن

هنا أيضا يتحدّد القول الشّعري في رأي القدامى بما يعرف بالسّياق العرفيّ والمتمثّل فيما يتخيّره الشّاعر من جهاز لغويّ يتماشى مع طبيعة المقام الّذي يتنزّل فيه نظم الشّعر:«إذا كان في اللّفظة عرف في طريق من الطّرق الشّعريّة فالواجب ألاّ تستعمل في مضاد ذلك الطّريق» [(40)] . وإنّما وجب أن يستعمل في كلّ طريق الألفاظ المستعملة فيه عرفا، لأنّ ما كثر استعماله في غرض ما واختصّ به أو صار كالمختصّ لا يحسن إيراده في غرض مناقض لذلك الغرض، ولأنّه غير لائق به لكونه مألوفا في ضدّه وغير مألوف فيه وذلك مثل استعمال السّالفة والجيد في النّسيب واستعمال الهادي والكاهل في الفخر والمديح ونحويهم [(41)]. وجاء في نفس هذا المعنى:«وينبغي أن يكون نمط نظم الفصل مناسبا للغرض، فتعتمد فيه الجزالة في الفخر مثلا والعذوبة في النّسيب»[(42)].. وبهذا التّصوّر يتحدّد نظم الشّعر في إطار ما يعرف بالسّياق العرفيّ وما يقتضيه من ضرورة المناسبة بين الجهاز اللّغويّ لكلّ غرض من أغراض القول الشّعريّ. ليكون لكلّ غرض مقام وجهاز لغويّ يناسبه. ويردّنا هذا التّصوّر إلى ما يفيد بتوفّر متصوّر السّياق في النّقد الأدبيّ عند العرب القدامى كما هو الشّأن فيما وقفنا عليه من مبدإ المناسبة بين الأغراض الشّعريّة وجهازها اللّغويّ المستعمل. وهذا ما يصلنّا بأهمّ الجهاز المصطلحيّ المستعمل في باب النّقد الأدبيّ وما يتوفّر عليه من متصوّرات سياقيّة تشدّ رؤية القدامى في تعقّب إنتاجهم الأدبيّ.

متصوّر السّياق وأهمّ مكونات جهازه المصطلحيّ:

المماثلة: اهتمّ النّقد الأدبيّ القديم بالمماثلة بين الألفاظ نظرا إلى قيمتها في تحديد جودة القصيدة من عدمها. فأجود الشّعر ما كان متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغا واحدا، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدهان[(43)]. ولا تقتصر المماثلة عند النّقّاد القدامى على الألفاظ وإنّمّا عدّها بعضهم وجها من وجوه السّرقات، وهي مماثلة السّارق المسروق منه في كلامه[(44)]. فالمصطلح يجري في إطار الحكم على قيمة النّص الشّعريّ من ناحية تلاحم أجزائه وتناسب ألفاظه كما يستحضر بما هو وجه من وجوه السّرقات. وفي الحالتين يكون متصوّر السّياق حاضرا بمستوييه الدّاخليّ والخارجيّ.

المجاورة: هذا المصطلح من ابتداع العسكري بحسب ما جاء في معجم مصطلحات النّقد العربي القديم لأحمد مطلوب. ويعني بالمجاورة تردّد لفظتين في البيت من غير أن تكون إحداهما لَغْوًا لا يُحتاج إليها[(45)]. وقد كانت المجاورة بين الألفاظ من مشاغل النّقّاد والبلاغيّين العرب القدامى وخاصّة في توظيف التّشبيه وما يستتبعه من إصدار أحكام نقديّة. وتأتي المجاورة بمعنى عدم التّنافر بين الألفاظ أو بتعبير الجاحظ أن لا تتبرّأ الألفاظ من بعضها بعض [(46)] كأن تُستعمل بعض التّشابيه الّتي تجعل الألفاظ متنافرة ومتباينة من مثل استعمال تشبيه «كبعر

الكبش» الّذي أشار إليه الجاحظ في البيان والتّبيين [47] ، وهو تشبيه مستوحى من البيئة الطبيعيّة. أو كأن يُستعمل تشبيه من قبيل» أبعار غزلان» كما في شعر ذي الرّمة الّذي أخّره عن الفحول مثلما جاء في رأي ابن قتيبة:« فهذا ذو الرمة مع ما يعرف عنه من القدرة على التّشبيهات والوصف إلاّ أنّه إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطّبع وذاك أخّره عن الفحول، فقالوا في شعره: أبعار غزلان ونقط عروس»[48]. هذا بالإضافة إلى ضروب من التّشابيه الأخرى الّتي تتنزّل في إطار السّياق الاجتماعي وما يستتبعه من استنباط أحكام نقديّة مثلما أورده المرزباني في شأن تحاكم بعض الشّعراء إلى ربيعة بن حذار الأسدي[49]. ويتنزل هذا الحكم النّقديّ في إطار إبراز مدى اقتدار الشّاعر على صياغة الألفاظ والمعاني في شعره والمحافظة على مبدأ التّناسب والانسجام بين مكوّنات القصيدة. فيحضر السّياق بمستوييه اللّغويّ والاجتماعي في الحكم على النّصّ.

القِران:«القران هو الرّبط بين أبيات القصيدة ليقع التّشابه والانسجام». وأرادوا به: ««قران» التّشابه والموافقة، وكان يطلب أن يوضع البيت إلى جنب ما يشبهه ويوافقه»، كما يُستعمل القران مرادفا للمماثلة والائتلاف والموافقة بين الألفاظ[50]. وقد نقل الجاحظ هذا المصطلح ويقصد به أن يكون الكلام متلاحما:«وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللّسان عند إنشاد ذلك الشّعر مؤونة. وأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم أنّه قد أُفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان» [51].

المؤاخاة:«المؤاخاة هي الائتلاف أو التّلفيق أو التّناسب أو مراعاة النّظير. و:«مراعاة النّظير هو أن يجمع النّاظم أو النّاثر أمرا وما يناسبه لا مع ذكر التّضادّ لتخرج المطابقة، وسواء كانت المناسبة لفظا لمعنى أو لفظا للفظ أو معنى لمعنى. إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه»». وقد قسّمها ابن قيم الجوزيّة إلى قسمين: المؤاخاة في المعاني والمؤاخاة في الألفاظ[52]. ويجري مصطلح المؤاخاة في سياق التّأليف بين مكوّنات القصيدة (الأبيات الشّعريّة، الألفاظ، المعاني..). لأنّ التّأليف بين مكوّنات القصيدة شرط أساسيّ من شروط صياغة الشّعر. وممّا جاء في هذا الباب ما يسوقه ابن الأثير في إطار التّباري بين الشّعراء أنّ بعضهم خاطب صاحبه قائلا:«أنا أشعر منك؟ قال: لِمَ؟ قال: لأنّي أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمّه». ومعناه أن يكون البيت أخا للبيت إذا أشبهه وكان حقّه أن يوضع إلى جنبه[53] وهو ما يفيد بأن تأتي القصيدة متلاحمة متماسكة لا تنافر بين ألفاظها.

المخالفة: يُستعمل مصطلح المخالفة في إطار الخروج عن مذهب الشّعراء في قول الشّعر. ويستعمل قدامة بن جعفر مصطلح مخافة العرف ويعُدّه من عيوب المعاني وذلك بأن يأتي الشّاعر بما ليس في العادة والطّبع(54).

لا يخرج الجهاز المصطلحيّ الموظّف في هذا الإطار عن مكوّنات القصيدة وقوانين إخراجها بحسب النّقّاد العرب القدامى. ويتنزّل إخراج القصيدة بحسب البناء الّذي جاء عليه الشّعر منذ بواكير نشأته. ولو لم يكن هناك بناء معيّن يحتكم إليه الشّعراء في نظم الشّعر لما جاء الشّعر وفق ذلك التّصوّر في إخراج القصيدة. وهذا ما يفسّر وجها من وجوه إنتاج الشّعر العربيّ القديم بما هو إنتاج يخضع لسياق معيّن لا بدّ أن يُراعى في عمليّة الإنتاج. فإخراج القصيدة القديمة كان يخضع للذّوق العام الّذي يؤكّد بدوره أنّ النّصّ محكوم بسياق معيّن كما هو الحال بالنّسبة إلى الأغراض الشّعريّة الّتي لا تفهم إلاّ بتنزيلها ضمن سياق القول الّذي جاءت فيه. فالسّياق هو الّذي يفسّر النّصّ ويكشف دلالاته. كما كان للسّياق دور مهمّ في تحديد بعض المقولات النّقدية وإبراز ما أثاره النقد القديم من قضايا كان لها تأثير بالغ في صياغة خطاب النّقد الأدبيّ عند القدامى.

الخاتمة:

كشفت قراءتنا في مسألة السّياق عند العرب القدامى أنّهم اهتمّوا بهذه المسألة وأولوها عناية كبيرة. وقد نزّلوها في إطار اهتمامهم بإنتاج النّصّ وما يخضع له من شروط تُقيّد عمليّة الإنتاج. فكان متصوّر السّياق حاضرا بمستوييه الدّاخلي والخارجيّ. وهو ما يتجلّى فيما جاء من اهتمامهم ببنية النّص الدّاخليّة وما يستتبع ذلك من علاقات ترابط وتجانس وتآلف بين مكوّنات الجملة والألفاظ والتّراكيب. فكان الحرص شديدا على مبدأ التّجانس الدّاخلي في بنية النّصّ الأدبيّ. وهذا أمر واضح في مدوّنات العرب القدامى على اختلاف منطلقاتهم في تطارحهم مسألة الإنتاج الأدبيّ. هذا بالإضافة إلى ما جاء من اهتمام بالملابسات الحافّة بإنتاج النّصّ وكلّ ما يتعلّق بالسّياق الخارجيّ. فكان السّياق الثّقافيّ والسّياق العرفيّ والسّياق الاجتماعيّ من بين أهمّ السّياقات الّتي في ضوئها تمّ الحكم على الشّعر العربيّ القديم.

إنّ ما يمكن أن ننتهي إليه في هذا الإطار هو أنّ النّقّاد العرب القدامى قد صاغوا جهازا مصطلحيّا متعلّقا بمسألة السّياق. فحضرت مصطلحات المقام والمقال والحال ومقتضى الحال والنّظم وغيرها في الخطاب البلاغيّ والنّقديّ. وهو جهاز مصطلحيّ محكوم برؤية نقديّة واضحة المعالم مدارها على إنتاج النّصّ وما يقتضيه من شروط تراعي الذّوق العام. كما يكشف هذا الجهاز المصطلحيّ أنّ هناك مؤسّسة نقديّة لها قوانين صارمة في الحكم على النّص. يُضاف إلى

ذلك ما صاحب هذا الجهاز المصطلحيّ من مقولات نقديّة تقيّد إنتاج النّصّ وتحدّد مسار إنتاجه.

وعلى قيمة ما أنتج النّقّاد العرب القدامى في مسألة السّياق، فإنّهم لم يستعملوا السّياق مصطلحا نقديّا كما هو الشّأن في الدّرس الحديث، وإنّما كان متصوّر السّياق حاضرا دون تسمية محدّدة فعبّروا عنه بجهاز مصطلحيّ بديل مثل المقام والمقال ومقتضى الحال... وهذا ما يجعل متصوّر السّياق بارزا في نصوص القدامى. وقد كان لهذا المتصوّر دور مهمّ في تأسيس الخطاب النّقديّ والبلاغيّ على معايير واضحة. كما كان له ذات الدّور في صياغة الأحكام النّقديّة والمقولات النّقديّة في فترة لاحقة من تأسيس خطاب النّقد عند أبرز الأعلام في هذا الباب.

إنّ النّقّاد العرب القدامى اهتمّوا بالسّياق وبيّنوا قيمته في إنتاج النّصّ ولكنّهم لم يجعلوا من هذه المسألة نظريّة نقديّة كما هو الحال في الدّرس النّقديّ الحديث. فعناصر السّياق مبثوثة في ما أنتجوا من بحوث في هذا الباب، ولكن الحديث عن نظريّة سياقيّة بمفهومها الحديث يبقى محلّ إشكال، لأنّه يصعب أن نتحدّث عن نظريّة سياقيّة في غياب دراسات تنظيريّة في هذه المسألة، مع أنّ ما يجعل من السّياق مسألة نقديّة واضحة عندهم كان حاضرا، ويبقى الأمر مرهونا بمزيد من البحث في هذه المسألة. وأمّا الحكم على أن التّراث النّقديّ والبلاغيّ اكتفى بالإشارة إلى السّياق، فهو حكم يحتاج أيضا مراجعة جذريّة. وهذا ما يفضي بنا إلى القول بأنّ متصوّر السّياق كان حاضرا بينما التّسميّة كانت غائبة (السّياق).

الهوامش

1- تستفيد هذه القراءة من الدّراسة المتصوّريّة للمصطلح كما تشكّلت عند أبرز أعلامها المؤسّسين ونكتفي بالإحالة على:

H. Felber, Terminology Manual, Paris, UNESCO et Info term, 1984 P, 108 .
Robert Dubuc, Manuel pratique de terminologie, Montréal et Paris ; éd. Linguatech et conseil internationale de la langue française, 1980, P 29.
Alain Rey, la terminologie : noms et notions, Paris : Puf, 1979, P 39.

2 - Petit Larousse, éd. Paris, 1989, P 261.
- Le Robert Dictionnaire pratique de la Langue Française, Paris : éd. France Loisirs ,2002, 3P 348.

4 - Jean Dubois, Dictionnaire de la linguistique, Paris: Librairie Larousse, 1973, P 123.

5- Dictionnaire de la linguistique et des sciences du langage, Paris: éd. Larousse, 1999, P 116.

6 - Dictionnaire d'analyse du discours, (sous la direction de Patrick Charaudeau et Dominique Maingueuneau), Paris :éd. Du Seuil, 2002, P 134.

7 - Georges Mounin, Dictionnaire de la linguistique, Paris: éd. Quadrige, 2004, P 83 - 84.2-

يميّز جورج مونان السّياق اللّغويّ من سياق الحال الّذي يعني التّجربة غير اللّغويّة المعيشة، فقد يُعدّ السّياق مثل التّعبير بوسائل لغويّة محضة لما هو أساس في حالة ما لتكوين رسالة، فمثلا إذا أشرنا إلى قلم فوق الطّاولة وقلنا لأحد: قدّمه لي، إذا جرّدنا الحالة من سياقها نقول: قدّم لي القلم الّذي فوق الطّاولة، فإنّ السّياق يعين المعنى الّذي تمنحه الكلمات بتحيين بعض الدّوال وحذف البعض الآخر وهذا ما يجنّب اللّبس حتّى في حالات المشترك اللّفظي ويمكن للكلمة أن تلعب دور السّياق كما لعلامات التّرقيم والنّبر والتّنغيم.

8 - A. J Greimas, J. Courtés, Sémiotique : Dictionnaire Raisonné de la théorie du langue, Paris: Hachette Universitaire, 1993, P 66.

9 - نُحيل في هذا الإطار على بحث مهمّ اشتغل فيه أصحابه على دراسة أشكال تحليل الخطاب التّداولي في مختلف أوجه توظيف السّياق.

- Herman Parret et autres، Le langage en contexte Études Philosophiques et linguistiques de pragmatique, Amsterdam/ John Benjamins B. V, 1980, P 74- 107.

وانظـــر خاصّة المفاهيم المتعلّقة بالفرضيّات وقد وقف فيها الباحثون على أربعة منها، ص 80 وما بعدها.

10 - J. L. Austin, Quand dire, c'est faire, trad. Et introduction de G. Lane, Paris : éd du Seuil, 1970.

11 - أبو الفضل جمال الدّين بن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، 1990، م 10، 166، مادّة (س و ق).

12- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، بيروت: دار الجيل، ط1/1991، م 4، ص 117. وانظر أيضا، أبو بكّر محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1/2005، ص 200 .

13 - الزّمخشري، أساس البلاغة، بيروت: دار صادر، ط1/1992، ص 314. وانظـر (الزّمر،71- 73).

14 - ابن منظور، لسان العرب، 166/10 مادّة (س و ق) .

15 -Dictionnaire d'analyse du discours, P 134 – 135- 136.10

16. - Austin: Quand dire, c'est faire, P 28

17 - أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمّد بن علي السّكّاكي، مفتاح العلوم، بيروت: دار الكتب العلميّة، (د. ت)، ص 73 .

18 - نفسه، 20 .

19 - انظـر مخالفة هذه القاعدة، الموشّح للمرزباني، تحقيق علي محمّد البجاوي، القاهرة: دار النّهضة، 1965، ص 335 وص 387- 388. وراجـع أيضا، قدامة بن جعفر، نقد الشّعر، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط3/ 1979، ص 84- 85.

20 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدّين، بيروت: دار الكتب العلميّة، ط1/2003، 43/1. وقد أشار الجاحظ في البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، بيروت: دار الجيل، (د. ت)، ص 115- 116 إلى أنّ ابن المقفّع يُعدّ من أوائل تحدّثوا في مسألة علاقة المقام بمقتضى الحال.

21 - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط2001/1، 296-297. وانظر معجم مصطلحات النّقد العربي القديم لأحمد مطلوب، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط2001/1، ص 397- 398.

22 - انظر الجاحظ، البيان والتّبيين، 93/1. وانظر أيضا، ص 138، وراجع في هذا الإطار»خصائص الكلام البليغ« كما حدّدها الجاحظ ضمن التّفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس (مشروع قراءة) لحمّادي صمّود، تونس: منشورات الجامعة التّونسيّة، 1981، ص 263 وما بعدها .

23 - الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السّلام محمّد هارون، بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ط3/ 1965، 39/3 وراجع أيضا، ص 369.

24 - راجع أحمد مطلوب في معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، ص 269.

25 - انظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمّد رضوان الداية وفايز الداية، دمشق: دار قتيبة، 1983، 261.

26 - راجع مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، ص 61 و62. وانظر أيضا، معجم مصطلحات النّقد العربي القديم لأحمد مطلوب، ص274.

27 - الجاحظ، البيان والتّبيين، 79. وراجع أيضا ص 37.

28- معجم مصطلحات النّقد العربي القديم لأحمد مطلوب، 81.

29 - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص 81. وراجع أيضا، معجم مصطلحات النّقد العربي القديم، ص 228-229.

30 - السّكاكي، مفتاح العلوم، ص 48.

31 - القزويني، الإيضاح، 17.

32 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 336.

33 - نفسه، ص 65 .

34 - انظر مطلوب معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، 662 وهو يجمع مواقف البلاغيّين القدامى في مفهوم النّظم وانظر المصطلح نفسه في معجم مصطلحات النّقد العربي، ص 429.

35 - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق محمّد محي الدّين، بيروت: دار الجيل، ط1972/4، 287/2.

36- انظر في هذا السّياق تعقيب قدامة بن جعفر في كتابه الموسوم بـ: نقد الشّعر، 62/61/60 على بيت شعريّ لحسّان. وهو ما عرض إليه طه إبراهيم في كتابه تاريخ النّقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرّابع للهجرة)، بيروت: دار الحكمة، (د. ت)، ص 24 .

37- نفسه، 65.

38 - راجع في هذا السّياق قراءة قدامة بن جعفر لأبيات من شعر زهير في المدح، 65- 67. وراجع في ذات السّياق قراءته لمدح نابغة الذّبياني للنّعمان بن المنذر، نقد الشّعر، ص 82.

39- عبد الله الغذّامي، النّقد الثّقافي (قراءة في الأنساق الثّقافيّة العربيّة) ، الدّار البيضاء: المركز الثّقافي العربي، ط2000/1، ص 100.

40 - أبو الحسن حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمّد الحبيب بن خوجة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 152.

41 - نفسه، 364.

42 - نفسه، 288 .

43- الجاحظ، البيان والتّبيين، 1/66- 67.

44 - انظر مطلوب، معجم مصطلحات النّقد العربي القديم، 403.

45 - نفسه، 355.

46 - الجاحظ، البيان والتّبيين، 66/1.

47 - نفسه، 67/1.

48 - ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، بيروت: دار الثّقافة، (د. ت)، 37- 38. وانظر توضّح المرزباني في الموشّح هذا الحكم النّقديّ القائم على التّشبيه 107- 108.

49 - انظر المرزباني في الموشّح، 107- 108. والحقّ أنّ التّعابير المجازيّة المستوحاة من البيئة الطّبيعة كانت غالبة على النّقد الأدبي في بداياته وهو أكّده أغلب النّقّاد العرب القدامى كما هو الشّأن في عيار الشّعر لابن طباطبا. راجع ص 48.

50 - مطلوب، معجم مصطلحات النّقد، 319. وانظر هذا المفهوم أيضا، ضمن التّفكير البلاغي عند العرب لحمّادي صمّود، ص 267 وما بعدها.

51 - الجاحظ، البيان والتّبيين، 67/1.. وانظر أيضا ص 69.

52 - مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، 174/3. راجع »المؤاخاة اللّفظيّة« و»المؤاخاة المعنويّة«، ص 175- 176- 177. وراجع المصطلح ذاته في معجم مصطلحات النقد العربي القديم، ص 343- 344. وانظر في المعجم ذاته مصطلحات »المشاكلة، ص 373- 374 و»الملاءمة«، ص 400 و»المساواة«، ص 368- 369. وهي مصطلحات تندرج في ذات الإطار الّذي يؤكّد مبدأ التّناسب والانسجام بين مكوّنات القصيدة.

53 - أبو الفتح ضياء الدّين بن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، الرّياض: دار الرّفاعي، ط1983/2، 228/1.

54 - مطلوب، معجم مصطلحات النّقد العربي القديم، 360. راجع مصطلح مخالفة العُرْف، ص 361.

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين. (1983). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (ط. 2). دار الرفاعي.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن. (1972). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (تحقيق: محمد محيي الدين، ط. 4). دار الجيل.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد. (1991). معجم مقاييس اللغة (تحقيق: عبد السلام محمد هارون). دار الجيل.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. (د.ت). الشعر والشعراء. دار الثقافة.

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين. (1990). لسان العرب. دار صادر.
- الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد. (2005). جمهرة اللغة. دار الكتب العلمية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (د.ت). البيان والتبيين (تحقيق: عبد السلام محمد هارون). دار الجيل.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1965). الحيوان (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط. 3). دار إحياء التراث العربي.
- الجرجاني، عبد القاهر. (1983). دلائل الإعجاز (تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية). دار قتيبة.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. (1992). أساس البلاغة (ط. 1). دار صادر.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر. (د.ت). مفتاح العلوم. دار الكتب العلمية.
- صمّود، حمّادي. (1981). التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوّره إلى القرن السادس. منشورات الجامعة التونسية.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. (1986). كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر). المكتبة المصرية.
- الغذامي، عبد الله. (2000). النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية (ط. 1). المركز الثقافي العربي.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم. (1986). منهاج البلغاء وسراج الأدباء (تحقيق: محمد الحبيب بن خوجة). دار الغرب الإسلامي.
- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. (2003). الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع (تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط. 1). دار الكتب العلمية.
- المرزباني، أبو عبد الله. (1965). الموشح (تحقيق: علي محمد البجاوي). دار النهضة.
- مطلوب، أحمد. (2001). معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (ط. 1). مكتبة لبنان ناشرون.
- مطلوب، أحمد. (2001). معجم مصطلحات النقد العربي القديم (ط. 1). مكتبة لبنان ناشرون.
- طه، إبراهيم. (د.ت). تاريخ النقد الأدبي عند العرب: من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع للهجرة. دار الحكمة.
- قدامة بن جعفر. (1979). نقد الشعر (تحقيق: كمال مصطفى، ط. 3). مكتبة الخانجي.

المراجع الأجنبية

- Austin, J. L. (1970). *Quand dire, c'est faire* (trad. et introd. de G. Lane). Éditions du Seuil.
- Charaudeau, P., & Maingueneau, D. (Eds.). (2002). *Dictionnaire d'analyse du discours*. Paris: Éditions du Seuil.
- Dubois, J. (1973). *Dictionnaire de la linguistique*. Paris: Librairie Larousse.
- Dubuc, R. (1980). *Manuel pratique de terminologie*. Montréal & Paris: Linguatech & Conseil international de la langue française.
- Felber, H. (1984). *Terminology Manual*. Paris: UNESCO & Infoterm.
- Greimas, A. J., & Courtés, J. (1993). *Sémiotique: Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*. Paris: Hachette Universitaire.

- Le Robert. (2002). *Dictionnaire pratique de la langue française*. Paris: Éditions France Loisirs.
- Mounin, G. (2004). *Dictionnaire de la linguistique*. Paris: Éditions Quadrige.
- Parret, H., et al. (1980). *Le langage en contexte: Études philosophiques et linguistiques de pragmatique*. Amsterdam: John Benjamins B. V.
- Petit Larousse. (1989). *Petit Larousse en couleur*. Paris: Éditions Larousse.
- Rey, A. (1979). *La terminologie: Noms et notions*. Paris: PUF.